الفصل الثالث

الاتجاه الوطني الاشتراكي في الشعر الفلسطيني المعاصر من ١٩١٨ إلى ١٩٦٨م.

أ ـ مفهوم الاتجاه الوطني الاشتراكي في الشعر الفلسطيني

تحديد وتوضيح

لقد اقتصرنا على بحث هذا الجانب من جوانب الاتجاه السياسي لصلته الوثيقة ببحثنا ولأن المجال لا يتّسع هنا لغيره. وقبل دراسة الشعر الاشتراكي يحسن بنا توضيح مفهوم هذا الشعر، ومعرفة الاشتراكية ولماذا سُمِّيت بهذا الاسم، ثم معرفة أهم ما تعتمد عليه.

إنّ كلمة اشتراكي منسوبة إلى «اشتراك» مصدر اشترك، واشترك الرجلان، كان كل منهما شريك الآخر[١].

غير أن تحديد تعريف قاطع شامل للاشتراكية فيه كثير من التحكم الذي يجب تجنبه في مجال الدراسة العلمية، ذلك أنّ «الاشتراكية من حيث هي فكر مذهبي، أو فكر إنساني يسعى إلى أن يوضع موضع التنفيذ، ترتبط بالكشف عن أمثل الحلول لأعقد قضايا المجتمعات السياسية ألا وهي قضية توزيع الثروة بين أعضائها، وتبعاً لذلك بالكشف عن الطريقة المثلى للعدل

(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج١، ص ٤٨٣.

الاجتماعي، ومن ثمّ لا بدَّ أن تتباين مفاهيمها زماناً ومكاناً ـ ولقد تباينت فعلاً ـ لا من حيث صور الحلول ومعايير العدل فحسب، وإنما كذلك بصدد منهج التفكير في السبيل إلى هذه الصور والمعايير»[1].

ومنذ البداية لا بدّ من التمييز بين الاشتراكية فكرةً والاشتراكية نظاماً، «فالأولى تشير إلى مجرّد تصوّر دار بخلد مجموعة من المفكرين، والثانية تشير إلى تحقق مجموعة من الاجراءات في الواقع»[2].

ويذكر جلال يحيى أن النظام الاشتراكي يتميز «بأنه يستند إلى فلسفة اجتماعية تنادي بضرورة تحقيق العدالة في توزيع الثروة، وتكافؤ الفرص بين الجميع، وعلى أن تتولى الدولة تقديم الخدمات اللازمة للمجتمع من تعليم وإسكان وعلاج وضمان اجتماعي. فالاشتراكية لا تعترف بمساعدة الغنيّ للضعيف من طريق التكايا مثلاً والهبات وأعمال البرّ والإحسان، بل تعتبر أن مساعدة الضعيف وتقديم الخدمات اللازمة لجميع أفراد المجتمع هي «واجب» من أولى واجبات الدولة التي عليها، لكي تكون اشتراكية أن تجد حلاً لمشكلات الجهل والفقر والمرض وغيرها من المشكلات الموجودة في مجتمعاتنا النامية. وبذلك تتميز الاشتراكية عن الرأسمالية في أنها لا تترك الصراع من أجل بقاء الأصلح يسيّر المجتمع، بل تعطي الكل للكلّ وتترك للدولة كل المهام التي تلزم المجتمع ـ دامت الدولة تسيطر على كل شيء[3]».

---

(١) البيه ـ عبد المنعم وآخرون: الاشتراكية لعربية: المنهج والتطبيق ـ دراسة مقارنة ص٧ (التمهيد). دار الجامعات المصرية، الاسكندرية ١٩٦٥.

(٢) أمين ـ جلال أحمد: مقدمة إلى الاشتراكية، ص٨. القاهرة، ط١ (١٩٦٦م).

(٣) التخلف والاشتراكية في العالم العربي، ص ٢٢٠ و ٢٢١. دار المعارف بمصر ١٩٦٥م.

والاشتراكية ظاهرة أساسية من مظاهر لتطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في القرن العشرين.

ويرى بعضهم أنّ «الفكرة الاشتراكية تقوم أساساً على فكرة في العدالة الاجتماعية أساسها أن يصبح العمل هو معيار توزيع الدخل، وتدعو من أجل تحقيق هذا الهدف إلى الأخذ بنوع أو آخر من الملكية الجماعية. والنظام الاشتراكي يقوم أساساً على تحقيق الملكية العامة لوسائل الانتاج تضمن سيطرة الدولة على الجزء الأكبر من الإنتاج القومي، وعلى الأخذ بنظام التخطيط، والالتزام بتحقيق عدالة توزيع الدخل كهدف تسعى الدولة إلى تحقيقه، وتختلف الدول الاشتراكية في مدى اقترابها منه»[1].

ويعتقد عبد المغني سعيد وسمير أحمد أن الاشتراكية العربية أكثر من نظام اقتصادي، لأنها تستمد ميزة خاصة من «التقاليد الخلقية والروحية ومن التاريخ القومي والحضارة القديمة ومزاج الشعب العربي»[2].

ومن غير شك أن بين الاشتراكية والدين انسجاماً في بعض النواحي، لأن الأديان كُلّها «تستهدف من طريق القيم الروحية التي تحاول تلقينها للإنسان تهذيب غرائزه الأنانية، وتعليمه الإيثار والإحساس بالغير، والزهد في عرض الدنيا الزائل، وهي تبثُّ في الأعمّ الأغلب روح المساواة بين سائر الأفراد في المجتمع، باعتبارهم سواسية في الخضوع لقدرة الله العليا»[3].

ثمّ يؤكد علي البارودي أَن الإسلام «هو الذي أخرج أول تطبيق عملي

---

(١) جلال أحمد أمين: مقدمة إلى الاشتراكية، ص١١.

(٢) الاشتراكية العربية، ص ٦٩. بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٣م.

(٣) البارودي ـ علي: دروس في الاشتراكية العربية، ص ٧٠. منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٦٦م.

للاشتراكية الروحية جمع فيه بين الإنسان الاشتراكي والنظم الاشتراكي فجاء تطبيقاً فطرياً سهلاً فيه سماحة وتلقائية ندر أن نجدها في غيره من التطبيقات[1]. واستناداً إلى هذا الرأي يأتي قول القائل عن الرسول ﷺ: الاشتراكيون أنت إمامهم...

ويرجو الاشتراكيون أن تؤدي الاشتراكية إلى إسعاد الإنسان بشرط أن يرتفع المستوى الخلقي لهذا الإنسان إلى مستوى الإحساس الكامل بالغير، والمحبة الحقيقية لسائر أفراد المجتمع، ولا بد في ذلك من المحافظة على التوازن بين «الأنا» والجماعة، والالتزام بتطبيق أسس الاشتراكية التي تعالج الواقع في الحاضر وتتجاوزه نحو التطلّع إلى المستقبل.

وهكذا فإن الاشتراكية دعوة إصلاحية، تتضمَّن الأسس اللازمة لإسعاد الإنسان على نحو متكافىء، ولمنع استغلال الإنسان الفرد للإنسان الفرد، ولمجموعة من الأفراد، سواء أكان هذا الاستغلال اقتصادياً أو اجتماعياً أو سياسياً.

ومجمل القول إنّ الاتجاه الاشتراكي يناقض المذهب الفردي، ذلك لأنّ سعادة الفرد لا يمكن أن تكتمل إلا بتحقيق سعادة المجموع، فالجماعة هي الغاية، ولا بدّ من بناء المجتمع على أساس من الكفاية والعدالة وتكافؤ الفرص بين سائر الأفراد فيه.

ولا بدّ للعرب من التمييز بين الاشتراكيات المختلفة والإفادة منها، وجعل التطبيق الاشتراكي العربي يختلف عن التطبيقات الأخرى، بغية تجنب أخطاء بعض الاشتراكيات، وإضفاء الشخصية العربية المستقلة على تفاصيل هذا التطبيق، بحيث ينسجم مع حاجات المجتمع العربي وعقائده وظروفه، ويحقّق أهداف الكفاية والعدل والرخاء على أسسٍ من التخطيط الشامل للحياة

(١) المصدر السابق، ص ٧١.

الاقتصادية والاجتماعية، مع مراعاة ديمقراطية إدارة عملية الانتاج، وعدم اتباع أية «جبهة» أو نزعة عالمية، بحيث يسلكون سياسةً إيجابية، باتت تعرف بـ«عدم الانحياز..»، ويهتمون بالعقائد السياسية الوطنية أكثر من اهتمامهم بالدولية والعالمية.

ويرى د. أحمد أبو حاقة أن الأدب الاشتراكي الملتزم ذو «وظيفة نفعية يربى بها المواطنون على الوعي والتحرر والتطور والثورة والنضال في سبيل المبادىء الإنسانية العليا ومعرفة القوانين والأنظمة، وفهم غاياتها السياسية والاجتماعية والحضارية، والعمل على تحسين العلاقات بين البشر، وعلى نشر روح التعاون والتضامن والخير والعدل وإنصاف المظلومين والمحرومين، ومحاربة الشر والظلم والفساد والاستغلال، وغير ذلك مما يدخل في نطاق الذود عن القيم والمحافظة عليها، ضمن مفهوم المادية الفلسفية والجدل المادي والتطور التاريخي»[1].

وقد تبين لي أن الشعراء العرب وجدوا صعوبة في العمل الوطني في فلسطين المحتلة، بغية الدفاع عن حقوق شعبهم المعيشية والسياسية، وتعرّضوا للاضطهاد والتعذيب، ولهذا لم يجدوا مناصاً من الانضواء تحت مظلّة سياسية تتيح لهم ممارسة نشاطهم، والعمل على انتزاع حقوق عرب الأرض المحتلة، وتحقيق طموحاتهم وآمالهم.

ويرى بعضهم أن الأدب الاشتراكي هو الأدب الذي يتأمل العالم والإنسان وقوانينه[2] ويسعى إلى القيام بدور نافع للجماهير، ويدلّلون على ذلك بأن الشعراء الذين انتموا صراحة إلى الأحزاب اليسارية لم يَبْدُ في

(١) الالتزام في الشعر العربي، ص ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) رشيدة مهران: الواقعية واتجاهاتها في الشعر العربي المعاصر، ص ١٨٦.

شعرهم تطرّف حادّ في العقيدة والدعوة لها.. أو لحزب معيّن.. وإنما صدروا عن إيمان بأنهم جزء من أوطانهم ومجتمعاتهم، يعيشون قضاياها، ويعبّرون عن واقع الحياة وما يدور فيها، ويميلون في أدبهم ناحية الالتزام الوجودي[1] «الواقعي»، الذي لا ينفصل عن واقع الحياة مع عنايته بالعواطف الإنسانية.

ويمكن القول إنّ الشعراء الاشتراكيين يهدفون إلى اتخاذ الأدب سلاحاً لتحقيق تكافؤ الفرص، والكفاح وتحريك الجماهير، حيت تتحرّر من أمراضها الاجتماعية، ولا سيّما مرض الفقر من جهة، والآفات الاحتماعية المختلفة من اضطهاد واستغلال من جهة ثانية، فضلاً عن أهداف أعمق وأشمل، يمكن أن تنضج ويعلن عنها في الظروف المناسبة...

ب ـ الاتجاه الوطني الاشتراكي في الشعر الفلسطيني المعاصر

ـ مقدمة

بقيت الحركات الاشتراكية منحصرة في فئة من المثقفين، في الفترة الممتدة ما بين الحربين العالميتين، ومع أن الحزب الشيوعي قد أُسس في مصر وفلسطين عام ١٩١٩م، ثم في لبنان عام ١٩٢٤[2]، إلا أن هذه الحركات لم تنتشر في الفئات الشعبية على نطاق واسع، وذلك لطغيان التفكير القومي من جهة، وتغلغل العقيدة الدينية في النفوس من جهة ثانية، ومحاربة الحكام وذوي النفوذ لها من جهة ثلثة، غير أنها انتشرت في العالم العربي بعد الحرب العالمية الثانية، ونتيجة لذلك وفي الوقت ذاته انتشر

(١) رشيدة مهران: الواقعية واتجاهاتها في الشعر العربي المعاصر، ص ١٨٦.
(٢) أحمد أبو حاقة: الالتزام في الشعر العربي، ص ١٨٤.

التفكير الشيوعي أيضاً[1]، وبدأنا نشهد منذ تلك الفترة براعم الشعر الاشتراكي والأممي، وأقول الأممي، لأن الشاعر الفلسطيني بدأ يدرك أن معركته هي جزء من معركة الإنسان ضد أعدائه أينما كانوا، وبأن الثورة الفلسطينية هي جزء من حركة الثورة العالمية، ممّا يجعل هٰذا الإدراك ينعكس على الموضوعات الشعرية، بحيث يشير إلى مدى تفاعل الشاعر الفلسطيني مع قضايا ونضالات عصره في سياقها التاريخي العام[2].

عندما أراد حكام «إسرائيل» تيئيس الشعب العربي في الأرض المحتلة، وجعله لقمة سائغة لسياستهم، فرضوا عليه عزلة قاسية، لا عن الشعوب العربية فحسب، بل عن سائر شعوب العالم أيضاً، وبشكل خاص عن القوى الديمقراطية للشعب اليهودي، فضلاً عن عزله أيضاً عن الفكر التقدمي الإنساني المتطوّر، العربي والعالمي..

في هذه الظروف نهض الشعراء في الأرض المحتلة ورفعوا عالياً لواءَ التضامن الأمميّ وأخوة الشعوب في شعرهم، لتثقيف جماهير الشعب والشبيبة بهذه الروح من جهة، ولتنمية الصلة مع القوى الديمقراطية الأخرى محليّاً وعالمياً، من جهة ثانية، مستفيدين من تجارب الشعوب الأخرى، وأساليب كفاحها الناجعة، فكتبوا شعراً مهماً، مقدّرين أهمية الحلف الجبّار بين الاشتراكية وحركة التحرر الوطني، ومتّعظين من تجربة النكبة، وتجربة العدوان الثلاثي، فغنّوا بعدئذٍ شعراً مفعماً بالحب والإخلاص كفاح كل شعب، وخاصة الشعوب التي وقفت مع العرب في كل معاركهم المصيرية واليومية، وقبل هذا وبعده غنّوا حقوق العرب وأحوالهم، ومختلف القوى الديمقراطية التي وقفت إلى جانبهم في وجه غزو سيناء، وضدّ مصادرة

(١) المصدر نفسه.

(٢) نزيه أبو نضال: الشعر الفلسطيني المقاتل، ص ١٤٢.

الأراضي العربية وسياسة التهويد على أطلال العرب، وغنّوا الطلاب، وإضرابات العمال وكفاحهم من أجل الديمقراطية ولقمة الخبز الحلال[1]، وانعكست الملامح الأُمميَّة لكفاح العرب بالداخل، وكفاح سائر الشعوب في شعرهم، فتميَّز بنكهة خاصة، يمكن بوساطتها تشخيصه ومعرفة هويته، ولمّا كانت مهمة الكفاح الثوري واحدة لا تتجزأ. فإن دور هذا الشعر قد يزداد مع الزمن.

ونحن نرى أن الاتجاه الوطني الاشتراكي في الشعر الفلسطيني يتناول موضوعات مختلفة، ترتبط بتحرير الوطن، وتشجّع على التعاون، وتدعو إلى مساندة قضايا التحرير في العالم، وتحية العمّال والدفاع عنهم، ورفض الاستغلال والعبودية والاستعمار، وإنصاف الجماهير حقوقها، وغير ذلك كثير، ممّا نحسبه يعود على الجماهير والعالم بالخير والعدل والمساواة والطمأنينة.

ولهذا الشعر كما عرفنا صلة قوية بالاتجاه الوطني في الشعر، لأنه يمثّل رافداً رئيساً من روافده التي ندرك أهميتها، ونعتزّ بها ونفاخر؛ وهو بالتالي جزء مهم من شعر الاتجاهات الوطنية.

إن الشعر الوطني الاشتراكي غزير؛ ولما كنت قد تطرّقت في الاتجاه الوطني ـ في الفصل الأول من الباب الثاني ـ إلى عرض نماذج كثيرة من هذا الشعر وغيره، لأنه يُعَدُّ من روافد الشعر الوطني، ومنعاً للتكرار في هذا الفصل فإني أرجو القارىء الكريم أن يعود إلى الفصل المشار إليه، ليزداد اطلاعاً على نماذج مختلفة من هذا الشعر في مناسبات عديدة. أما أشهر الذين نظموا شعراً في هذا الجانب فهم: عبد الكريم الكرمي، توفيق زياد، محمود درويش، سميح القاسم، خالد أبو خالد، معين بسيسو، وراشد

(١) عبد الرحمٰن ياغي: شعر الأرض المحتلة في الستينات، ص ٦٢٥ ـ ٦٢٨.

حسين. وتوجد لهؤلاء الشعراء دواوين شعرية تطفح بالكثير من هذا الشعر.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنني سوف أبحث الآن أهم الموضوعات الوطنية التي تطرّق لها هؤلاء الشعراء في شعرهم، آملاً أن تكون هذه النماذج نواة لبحثٍ أوسع وأعمق في المستقبل، بعون الله.

أولاً: تكريم العمّال والإشادة بجهودهم

رحّب الشعراء بالعمّال في مناسبات عديدة، وأشادوا بجهودهم، في مختلف المجالات، وفي بناء الوطن وخدمة الأمة.

١ـ يؤكد الشاعر عبد الكريم الكرمي ما أشرنا إليه آنفاً، حيث يحيّي العمّال، ويشيد بدور الحركة العمّالية، فيقول في قصيدته «مرحباً بالرفاق»: [الخفيف]

هتف القلب: مَرحَباً بالرفاقِ ... ما أُحيلى اللقاءَ بعد الفراق
يا رفاق التاريخ خلّدتموه ... وهو تاريخ ثورة وانعتاق
بالبطولات والمروءة والدمـ ... ـع وخُمْر الفعال والأخلاق
إنّ حريّة الشعوب عروسٌ ... تتجلّى ليلاً على العشّاق
قد صدعتم صدر الليالي إليها ... وبذلتم لها كريم الصَّداق

* * *

أيُّها الثائرون في العالم الرَّحـ ... ـب على الظالمين في الآفاق
حطّموا النير فهو من أثر الوحـ ... ـش على الأرضِ واعصفوا بالوثاق
أينما كنتمُ فنحن رفاقٌ ... وحّدتنا حريّة الأعناق
جمعتنا مبادئٌ وعهودٌ ... فالتقينا من قبل يوم التلاقي[1]

يستعذب الشاعر اللقاء بالرفاق بعد الفراق، ويغتنم المناسبة، فيتحدث

(١) ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) ص ٥٤.

عن أثرهم في تخليد التاريخ والثورة، سواء في نضالاتهم وبطولاتهم، أو في مروءاتهم وأخلاقهم، ويتغنّى بحريّة الشعوب، ويشبهها بعروس تتجلّى على العشاق، ويذكر أن هؤلاء الرفاق بذلوا في سبيل الحرية أغلى الأثمان، وهذا ما ينسجم مع القول المشهور: «مَن يطلب الحسناء لا يغلُهُ المهر..».

٢ـ ثم يرحّب الشاعر ذاته ـ عبد الكريم الكرمي ـ بالعمّال، يوم عُقِد مؤتمرهم بمدينة يافا عام ١٩٤٧، ويؤكد دور الطبقة العاملة وبرنامجها الثوري، وتلاحمها مع حركة التحرّر العالمي، ويقول في قصيدته: «مؤتمر العمّال في يافا»: [المتقارب]

أهلاً بعمّال البلاد ... نزفُهم شيباً ومردا
أنتم إذا أحمرَّ الحديد ... حماتُها سهلاً ونجدا
تتألقون كواكب البطـ ... ـحاء لا تُحصَون عدّا
تبنون تاريخ الجهاد ... وترفعون عليه بندا
مَن مثلكم عند اللّقا أعـ ... ـلى يداً وأعزُّ جندا
عَرَقُ الجباه نحيلُهُ فو ... ق الثرى مسكاً وندّا

* * *

قالوا يساريُّون قلتُ ... أجَلُهُم عملاً ومبدا
وطنٌ على أيديهمُ يجـ ... ـني مع الأيام سَعْدا
حفّت به أعرافُهم ... ريّا وبالأمجادِ تندى
لم يعرفوا كيف المباد ... ىءُ تُشترى عدّاً ونقدا
هذي المطارقُ والمناجـ ... ـلُ تحصد الظُّلاّمَ حصدا
وتحرّر الانسان حتى ... لا ترى في الكونِ عبدا[1].

فالعمال هم حماةُ البلاد، وجنود الوغى وبُناة الأمجاد، وفي ساحة

(١) ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) ص ٥٥ و ٥٦.

القتال هم الغالبون الأعزاء، حتى بات الشاعر يرى في عَرَق جباههم مسكاً ونَدّاً. . وقد بدت في شعر أبي سلمى ـ من خلال هذه القصيدة وغيرها ـ ملامح الاتجاه الاشتراكي، في وقتٍ مبكر قبل عام ١٩٤٨، ثم نمت مع مرور الزمن. ولا بدّ من الاعتراف بأن هذا الشاعر كان من السابقين في هذا المجال. وهو يرى أن رفاقه أجلُّ عملاً وأفضل مبدأً من سواهم، وأن الوطن ينمو ويتقدم على أيديهم، ويعزو الشاعر ذلك إلى ثباتهم وإخلاصهم، ويهدّد الظالمين بالقتل بالمطارق والمناجل، على يد رفاقه بالطبع. . ، بغية تحرير الإنسان من العبودية. .

ومن غير شك أن شعره يتّسم بالنزعة الإنسانية، التي ترمي إلى تحرير الناس من الظلم والاستغلال، وإنصاف العمال حقوقهم.

٣ ـ ويعدِّد الشاعر راشد حسين في قصيدة له بعنوان: «إلى عامل»، خدمات العامل، ويعترف بأهميته وفضله، ويشير إلى هضم حقوقه وتمرّده على الظالمين، ويقول: [الكامل]

في صوتك الداوي إباءٌ حينما ... دوى وصفَّق في الفضاءِ وأرعدا
هضموا حقوقك واستباحوا دَوْسَها ... فسحقْتَ جمعهمُ وكنت لها فِدا
وتمرَّد الظلمُ اللعينُ بجيشه ... فلطمت وجهَ الظلم حين تمرّدا
وأتى إليك المجدُ يبسطُ كفَّهُ ... فمددتَ لمّا أن أتاكَ له يدا
وتبسَّم التاريخُ حين قهرتَه ... حتى لَثَمْتَ جبينَهُ فتورَّدا
غَنَّت ملائكةُ السماءِ ومجَّدتْ ... ذكراك والشيطانُ جُنَّ وعربَدَا
قُمْ سائل الأهرام عمَّن شادها؟ ... واهتف بروما: مَن فخارَك أوجدا؟
واهتف بناطحة السَّحاب وقلْ لها ... لا تكبري ما أنت إلاَّ لي صدى
واهتف بسيدِ روسيا وأميركا: ... لا تشمَخَنْ فأنا جعلتك سيّدا!![1]

(١) ديوان راشد حسين، مجموعة مع الفجر، ص ١٠٠ ـ ١٠٢.

يرى الشاعر في صوت العامل المدوّي في الحقل والمصنع والسوق إباءً ـ للباطل ـ مخيفاً مرعداً، لأنه يعمل في كل ميدان فيعمّر البلاد ويخدم العباد بصبر ولطف، ويسيّر الأمور وينجز المنتوجات، ويأسف الشاعر لهضم حقوق هذا العامل، ويشير إلى أنه اضطر إلى سحق الظلم، وتمكن من شق طريقه إلى المجد، فصافحه، وتبسّم له التاريخ وسطّر له صفحات مشرقة، بينما مجّدت الملائكة ذكراه، وجنّ الشيطان غيظاً وحنقاً لخروج العامل على رغباته وإرادته، وبلوغه مأربه.

ولا يكتفي الشاعر بذلك، بل يباهي الدنيا بالعامل الذي شاد الأهرام وناطحات السحاب، وصنع الأقمار «الصناعية» والمركبات الفضائية ـ وليس لها أن تشمخ عليه ـ فضلاً عن رفعه لشهرة روما وأعظم المدن في التاريخ.

لقد جاءت هذه القصيدة على وزن البحر البسيط وانسابت فيها الحجج لتلتقي مع سهولة العبارة ووضوح الهدف، ممّا زاد في جمالها، وأسبغ عليها قيمة كبرى، ورضيَ بما حالفها من شكلٍ ومضمون.

ولم يتوقف الشاعر عند هذا الحد في قصيدته ذاتها، بل عرّج على جوانب أُخرى ذات قيمة مشهورة، وقل: [الكامل]

رفَّ الخلودُ على جبينك ماسحاً ... عرقاً تناثر فوق وجهك كالندى
يدُك التي بنتِ القصور وشيَّدتْ ... فاْهدمْ إذا كفروا الذي قد شيّدا
فلسوفَ تنبتُ من دماك سواعدٌ ... جبّارةٌ يخشى يصافحها ألرَّدى
إن يفخروا بالمال حين تغيظهم ... فدماؤك الحمراءُ أكرم محتدا!

* * *

أنت الذي صلبَ الحديد أسلتَهُ ... وصرخت بالماء: انتظِر، فتجمَّدا
وقضيّةُ الأجناسِ أنتَ أثَرْتَهَا ... فاْقطعْ قيودَ الجنسِ واْهتف منشدا

والـلـون لـيـس وإنْ تـعـدّد فـارقـاً فلكم محتْ بيضُ الفعال الأَسْودا
فـلـئـن تـبـاينـت الـوجـوهُ بـلـونـهـا فـأهـتـف معي لـون الـدّمـاءِ تُوَحّـدا
إنـي أَخٌ حـيـث كـنـتَ وإنـنـي لعدوّ من ظلمَ ألملا وأستعبدا[1]

يصوّر الشاعر عرق العامل يتصبَّبُ على جبينه كالندى، فيرى أنّ ذلك ممّا يخلّد ذكره، ثم يحيّي يده التي تبني القصور، ويناشده أن يهدم مظاهر الفساد والكفر، ويتوقع أن تتربى على يديه سواعدُ أبطال، ويعلن أنه إذا كان الغنيُّ يكرم بالمال فالعاملُ أكرم منه، لأنه يجود بالدم في سبيل عمله، وهو الذي أسال الحديد، وحوَّل الماءَ إلى جليد، وليس من العدل أن نرى فرقاً بين الناس بسبب لون أو جمال أو جنس، إذ طالما محت بيض الفِعال الأسودا، ويكفي أن يوحد لون الدماء بين البشر.

ويخلص الشاعر إلى السعي إلى نيل شرف مؤاخاة العامل، ومعاداة من ظلم الناس واستعبدهم، مهما حسُن منظره وكثُر ماله.

أجل لقد قنع الشاعر بالعامل أخاً وصديقاً ومجاهداً ومنتجاً، وبانياً للقصور والأمجاد، وفائزاً بالمحبة والتقدير والخلود، وفي هذا كلّه ما يغني عن غيره.

ويبدو من هذه الأمثلة وغيرها أنّ الاتجاه الاشتراكي يقدّر دور العمّال وأثرهم، ويدافع عنهم دون هوادة، أينما وأنّى كانوا...

ثانياً: التمسُّك بالأرض والانتماء العربي

يبدو هذا الجانب جلياً في قصائد شعراء فلسطين، وفي طليعتهم محمود درويش، وبالرغم من أنه قد ارتبط بالماركسية كفكرة، وبالحزب

(١) ديوان راشد حسين، مجموعة مع الفجر، ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

الشيوعي الإسرائيلي كتنظيم سياسي، فإنه ظلّ متمسّكاً بالأرض والانتماء العربي.

١ ـ وللتدليل على ما أشرنا إليه نسوق مثالاً من قصيدة محمود درويش المعروفة «بطاقة هوية» وفيها يقول:

أنا من قرية عزلاء منسيّة

شوارعها بلا أسماء

وكل رجالها في الحقل والمحجر

يحبّون الشيوعيّة

فهل تغضب؟

سجّل..

أنا عربي

سلبت كروم أجدادي

وأرضاً كنت أفلحها

أنا وجميع أولادي

ولم تترك لنا..

ولكل أحفادي

سوى هذي الصخور

فهل ستأخذها

obeikandl.com

حكومتكم كما قيل[1]؟

إذا كان محمود درويش يعترف بأنه من قرية عزلاء منسية، بسيطة، وأن رجالها يعملون في الحقل والمحجر فإنه يفخر بهم، وبإرادتهم القوية، ويؤكد أنهم مثله عرب يحبّون الشيوعية، ويبدو أن الشاعر قد بالغ في اعتبار كل رجال بلدته يحبّون الشيوعية؛ وإذا كان بعضهم شيوعيين فان غالبيتهم من المسلمين، ومن الجدير بالذكر أنه كانت للعرب في الأرض المحتلة حركة قومية منفصلة عن الشيوعيين تماماً، هي حركة «الأرض».

ويبدو على أية حال أن الشاعر يريد القول: إذا كانت الشيوعية تغضبك ولا ترضيك فإني أتحدّاك بما هو أعزّ وأهم، وذلك هو انتمائي العربي.

وممّا لا شك فيه «أن عروبة محمود درويش وتمسّكه بأرضه هما أهم الموضوعات التي تبرز في قصائده؛ والاتجاهات النضالية في شعره هي اتجاهات إنسانية عامة، تتصل بكفاح البشر في مختلف أنحاء الأرض، ولا تتصل بكفاح الشيوعيين وحدهم هنا أو هناك»[2]، وخير دليل على ذلك قوله التالي:

أنا لا أكره الناس
ولا أسطو على أحد
ولكني إذا ما جعت
آكُلُ لحم مغتصبي

---

(١) محمود درويش، ديوان محمود درويش، مجموعة «أوراق الزيتون» ص٧٣ ـ ٧٥.
(٢) رجاء النقاش: محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص ٢٨٣.

حذار.. حذار.. من جوعي

ومن غضبي[1]!!

فهو يشير في قصيدته إلى كفاحه وصبره، وقدمه في أرضه، وتمسكه بها، وإصراره على البقاء في الوطن، وهو لا يكره الناس، ولا يتعدّى على أحد، ممّا يدل على رقيّه ورفعة مستواه الحضاري، ولكنه إذا جاع وغضب ـ كناية عن سلبه حقّه ـ فإنه يقتل الظالم المعتدي.

ويعلن أنَّ السوط والقيد والسلاسل تحوّله إلى مقاتل، إذ يقول:

سأقولها في غرفة التوقيف

تحت السوط.. تحت القيد

في عنف السلاسل

مليون عصفور على أغصان قلبي

يخلق اللحن المقاتل[2].

فلغة محمود درويش هي لغة النضال الإنساني العام، وهي أيضاً لغة العنفوان والصبر على الشدائد، ويدلّل على ذلك بأن الاضطهاد والتنكيل والتعسّف لم تزده إلا صموداً وقتالاً.

ولهذا فإن محمود درويش شاعر قومي إنساني، له رؤية قومية إنسانية، تمثّل عرب الأرض المحتلة، الذين لا يُعَدُّون ضحايا الصراع الطبقي، بقدر ما هم ضحايا الصراع العنصري.

---

(١) محمود درويش، ديوان محمود درويش، مجموعة «أوراق الزيتون» ص ٧٣ ـ ٧٥.

(٢) رجاء النقاش: محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص ٢٨٥.

٢ ـ ويعلن محمود درويش تكراراً أنه برغم الاضطهاد والمعاناة والجراح المؤلمة لن يغادر أرضه الحبيبة، ولن يتخلّى عنها ولن يرحل، حيث يقول:

آه، يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبه
وأنا لست مسافر
إنني العاشق والأرض حبيبه[١]!

فهو يعشق أرضه أيَّما عشق ـ وعشق الأرض أسمى من سواه ـ ولذا فلن يفارقها، وهي ليست حقيبة، ولا هو مسفر...

إنها كلمات قليلة، تتضمن دلالات كثيرة..، جميلة، وفي ذلك بلاغة واضحة.

٣ ـ ويؤكد محمود درويش مراراً وتكراراً حبّه لأرضه ووفاءه لها، وللمبادىء والعهود في التمسُّك بها، والنضال من أجلها، ولن يخونها مهما نال من عذاب في سبيلها، حتى لو شنقوه، ويقول في قصيدة له بعنوان «وطن»: [الخفيف]

هذه الأرض لي.. وكنت قديماً
أحلب النوق راضياً ومولّه
وطني ليس قصةً أو نشيداً
ليس ضوءاً على سوالف قُلّه

(١) عبد الرحمٰن ياغي: شعر الأرض المحتلة في استينات، ص ٣٤٢.

وطني غضبة الغريب على الحزن

وطفلٌ يريد عيداً وقبله

ورياحٌ ضاقت بحجرة سجن

وعجوزٌ يبكي بنيه.. وحقله

هذه الأرض جلدُ عظمي

وقلبي..

فوق أعشابها يطير كنحله

علّقوني على جدائل نخله

واشنقوني فلن أخون النخله[1]!

يشير الشاعر إلى قدمه في أرضه، وتربيته للنوق فيها، وشرب حليبها، تدليلاً على نشأته على الشجاعة والفروسية والوفاء، وهي عادات عربية أصيلة يتمسّك بها الشاعر...

ولهذا فإن حبّه لأرضه عظيم، وهو أكبر من حبّ المرء لقصة أو نشيد، ويتابع الوصف الجميل، ويخلص إلى أن أرضه تستره بل تلتصق به، وحياته معلّقة بهذا الجلد ـ الوطن ـ وأنه لا يستطيع أن ينسلخ عنه أو يتخلّى عنه، ويشبّه قلبه بنحلة تطير فوق هذه الأرض البديعة سعيدة هانئة، ثم يؤكد أنه لو أُعدم شنقاً على جدائل نخلة في وطنه فلن يخون هذه النخلة، وبالتالي فلن يخون أرضه ووطنه.

---

(١) ديوان محمود درويش، مجموعة آخر الليل، ص ٢٣٥ـ ٢٣٦.

obeikandl.com

إنه حبٌّ مثالي للأرض، وصبر كبير على المعاناة والكروب، ووفاءٌ سامٍ لا يفوقه وفاء. وإن وطناً يعجُّ بِمِثْل هؤلاء الشعراء والرجال الأوفياء البواسل لن يضيع مهما أدلهمّ الليل وجار الزمن، ولسوف يحرره أبناؤه عاجلاً أم آجلاً بعون الله.

٤ ـ ويردّد توفيق زياد مواقف نضالية رفيعة في قصيدته «هنا باقون»، التي غنّاها في أيلول سنة ١٩٦٥، باسم عشرين شاعراً في الأرض المحتلة، فتأتي صورة حقيقية من صور الإصرار على التمسّك بالأرض، وامتداد جذور العرب في بطنها. ويؤكد الشاعر بذل الدم في سبيلها، واستحالة تخلّيهم عنها، حيث يقول: [السريع]

كأننا عشرون مستحيل
في اللدّ، والرملة، والجليل
هنا.. على صدوركم. باقون كالجدار
وفي حلوقكم،
كقطعة الزجاج، كالصبّار
وفي عيونكم،
زوبعة من نار،
هنا على صدوركم باقون، كالجدار
نجوع.. نعرى.. نتحدّى..
ننشد الأشعار
ونملأ الشوارعَ الغضاب بالمظاهرات

ونملأُ السجون كبرياء

ونصنع الأطفال.. جيلاً ثائراً.. وراء جيل

إنّا هنا باقون

فلتشربوا البحرا..

نحرسُ ظلَّ التين والزيتون

ونزرع الأفكار، كالخمير في العجين

برودة الجليد في أعصابنا

وفي قلوبنا جهنّم حمرا

إذا عطشنا نعصر الصخرا

ونأكل التراب إنْ جعنا.. ولا نرحل!!..

وبالدم الزكيِّ لا نبخل.. لا نبخل.. لا نبخل..

هنا.. لنا ماضٍ.. وحاضرٌ.. ومستقبل

* * *

يا جذرنا الحيَّ تشبَّث

وأضربي في القاعِ يا أُصول

أفضلُ أن يراجع لمضطهد الحساب

من قبل أن ينفتل الدولاب

(لكل فعل).. اقرأوا

obeikandl.com

ما جاء في الكتاب[1]!!..

إنه تصوير رائع للمواقف الصلبة لعصبة الشعراء، يرمي إلى إعلان صمود جماهير الأرض المحتلة في أرضها، محتملة في سبيل البقاء.. كل اضطهاد وعذاب، متمسكة بأرض الآباء والأجداد، كي تبقى لها ولأبنائها من بعدها، مهما بلغت المعاناة، وغلت التضحيات ونزفت الدماء...

يريد الشاعر أن يسهم هذا الصمود في بعث أجيالٍ واعية، ثائرة من أجل تحرير الوطن.

وبالفعل كان وسيبقى صمود شعب فلسطين وتمسّكه بأرضه مقدمة لكل ثورة له، فحقُّ الثوّار لا يموت، والظلم لا يدوم. وصدق الشاعر الشابيّ في قوله: [المتقارب] [2]

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بُدَّ أن يستجيب القدر
ولا بدّ لليل أن ينجلي ولا بدَّ للقيد أن ينكسر

وصدق أحمد شوقي في قوله: [الوافر] [3]

وللحريّة الحمراء بابٌ بكلِّ يدٍ مضرَّجةٍ يُدَقُّ
ففي القتلى لأجيالٍ حياةٌ وفي الأسرى فدىً لهم وعتقُ

وشعب فلسطين متمرّس في الصمود، والصبر، والتمسُّك بأرض الوطن، والجهاد في سبيله، وتقديم أغلى لتضحيات؛ ولن تتوقف مسيرته هذه دون تحرير وطنه.

٥ ـ ويدلّل سميح القاسم على حبّه لبيته ـ ومن ثم بلده ـ بجعله

(١) ديوان توفيق زياد، مجموعة «أشدّ على أيديكم»، ص ١٩٧ ـ ٢٠١.
(٢) ذكر من قبل في ص ٣٦٢.
(٣) ذكر من قبل في ص ٣٦٢.

مقدّساً مثل معبد، ولهذا فإنه على عتباته يسجد، وبسبب هذا الحب أيضاً فإنه يتخيّل رائحة الطيب في حذاء من شيّد بيته، فيتلمس هذا الطيب، ويقول في قصيدة له بعنوان «الأرض من بعدي»:

يا بيتنا الباقي

يا بيتنا المَعْبَد

يا مَن على عتباته أسجُد

وأشمّ طيبَ حذاءِ من شَيَّد!

يا باب بيتي.. مُشْرعاً لتؤمَّك الدنيا

يا غرفتي العليا

يا مهدَ أولِ كلْمةٍ أُنشد

أنتم شهودي في محبتها

أيصير من تهوى

وأصير ذكرى.. ثم لا أذكر[1]؟!

٦ـ وللشاعر عبد الكريم الكرمي باع طويل في حبّ الوطن، وحنوّه عليه. وآماله تحيا في وطنه، الذي درجت عليه الأجيال، ويقول في قصيدة له بعنوان «أرض الجهاد»: [الرمل]

وطـنـي! أنـتَ بـقـايـا أَمَـلٍ خَـضَّـبَـتْـهُ عـبـراتٌ مـن فـؤادي
مـا الـذي جـرَّح جـنـبـيـك أَجـبْ كـيـدُ أبـنـائـك أم كـيـدُ الأَعـادي؟!

(١) ديوان سميح القاسم، مجموعة دمي على كفي، ص ٤٨٤.

لا تـقـل هـذا تـرابٌ جـامِـدٌ إنّـما الاحـياءُ فـي هـذا الـجـمـادِ
وآحـفـظِ الأَجـيـالَ فـي ذاك الـثـرى فـالـدم الـحرُّ مـنَ الـتُّـرْبِ يـنـادي[1]

فأرض الشاعر ترتوي بعبرات أبنائها ودمائهم، وقلبُه ينفطر ألماً لجراحها وآلامها، سواء أكانت من فعل أبنائها أو من فعل أعاديها، وها هي أرضه تحتفظ بأبنائها في قلبها بعد موتهم، بعد أن كانت تطعمهم من خيراتها وهم يدرجون عليها. ومن واجبهم أن يحافظوا عليها ويحموها من الأعادي، ويضحّوا في سبيلها، لتبقى عزيزة حرّة.

ثالثاً: الدعوة إلى التعاون ومعالجة الآفات

التعاون عنصر أساسي لتوفير الخدمات ومن ثم الراحة للفرد والمجتمع والعالم، وهو عماد التقدم والنجاح، وسبب رئيسي لتوفير السعادة والهناء، وقد اهتمّ شعراء فلسطين بهذا الأمر وأشاروا إليه في قصائدهم.

١ ـ يمتلىء شعر توفيق زياد بالدعوات إلى التعاون، ممّا يدلّ على تجاربه في شؤون الحياة والمجتمع، ويؤكد اهتمامه به، كي يعود هذا التعاون على شعبه ووطنه بالفوائد المرجوّة، ومن ذلك ما جاء في قصيدته «إلى عمّال موسكو»، حيث يقول:

قلوبُكم كبيرة
وبقدْر ما أَنتم جبابرةٌ فأنتم طيبون
وستغفرون لنا حتى التّتائم
وستُرسِلُون لنا الهدايا

(١) ديوان أبي سلمى(عبد الكريم الكرمي) ص ٣٢.

دون عدّ

وَسَتَبْتَنُون لِشَعْبِنَا، مليون سدّ

أنا أعرفُ العمّال.. أعرِفُ طبْقتي[1]

وسَتَشْحَنُون لنا المَكائِنَ والمَصانع:

فالصُّلْبُ من سيبيريا

والقمح من أُوكرانيا

والسُّفُنُ والأحواضُ مِنْ لينينغراد

و «الميغ» من موسكو

وسَتُرْسِلُون لنا السلاح..

مِنَ الرَّصاص إلى المَدَافع

.....

يا رفاق[2].

فالشاعر الذي يخاطب عمال موسكو مشيراً إلى دعمهم وسائر رفاقهم في روسيا، باعتبارهم رفاقه، يؤكد أنهم جبابرة وطيّبون ومتسامحون، يغفرون الشتائم، ويبنون السدود، ويهتمون بالتعاون فيرسلون لبلده الهدايا والمصانع والسفن والطائرات والسلاح. ويبدو جلياً أن الشاعر يمتلك لغة ـ مثل قوله يا رفاق ـ تشير إلى انتمائه السياسي، حيث تتعمّق في شعره العناصر البروليتارية، بينما تبرز في شعر محمود درويش وسميح القاسم نظرة قومية

(١) سُكّنت الباء في هذه الكلمة للضرورة الشعرية.

(٢) توفيق زياد: ديوان توفيق زياد، ص ١٥ ـ ١٦.

وإنسانية، خالية من التعصّب والرؤية الطبقية، دون معاداة للماركسية.

٢ ـ وحينما يرحّب عبد الكريم الكرمي برفاقه يتغنّى بالحرية، ويدعو الأحرار إلى التعاون والثورة على الظالمين والمستغلّين، وتحطيم مظاهر الجهل والفقر والظلم من الكون، وهي دعوة مهمة من شاعر مجرّب بعيدِ النظر، عارفٍ بالأمور، وهو يقول في قصيدته «مَرْحَباً بالرّفاق»: [الخفيف]

وامسحوا الظُلمَ والجهالةَ والفقرَ ... مِنَ الكونِ بالدَّمِ المهراق
أينما كُنْتم فنحنُ رفاقٌ ... وحّدتنا حرّيّة الأعناق
والتقينا على جناحِ الأعاصيرِ ... وفوقَ اللّظى وبيضِ الرّقاق
في الميادين والمعامل إخوا ... نٌ فوقَ الرُبى وفي الأعماق
جَمَعَتْنا مبادئٌ وعهودٌ ... فالتَقَيْنَا من قبلِ يومِ التلاقي[1].

تؤكد هذه الأبيات أن الشاعر الكرمي ينشد العدالة والمساواة، ولو تحققت هذه الأماني لما بقي في المجتمع فقير أو مقهور أو مظلوم، وعندئذٍ يصبح الجميع مثل جسدٍ واحد، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى، وتغدو الأمة على موعدٍ مع النجاح والازدهار والمجد.

٣ ـ ويتناول الشاعر سميح القاسم الانحلال الخلقي في المجتمع الإسرائيلي في الأرض العربية المحتلة في قصيدته «وحيداً في ليلة رأس السنة»، وينتقد استهتار اليهود بالعرب واغتصاب حقوقهم، ثم انغماسهم في العبث والمجون والفساد على أساس شقاء العرب هنالك، ويصوّر حال سهراتهم الكريهة، بما يتخللها من طعام، وشراب للخمور، ورقص وعربدة وتفسخ خلقي، ويقول:

---

(١) ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) ص ٥٤.

الناسُ

كُثُرٌ من حولي،

يُحكى أن الليلةَ عيد،

عامٌ يتوارى في الظلّ

ويُطِلُّ جديد

. . . . . .

أسلاكي، ما زالت

وخِيَامي، ما زالت

ودمي.. يستصرِخُ في الطُّرُقَات!

ما أفعلُ هٰذي الليلة؟

قَدَماي مسمّرَتَان على المِصْطَبَةِ المثلوجه

والدمعُ المُمْطِرُ في خلدي

يسقُطُ في حَلْقي.. حبَّاتٍ من بَرَدِ!

ويدي أنهارت

فرقَ المائدةِ الملأى.. مَفْلوجه!

* * *

منتصف الليلة..

الضوءُ انشلَّ، وماتتْ كلُّ الشمعات

وَعَلَتْ في العَتْمَةِ كركرةُ الضَّحكات

ـ هاتي القُبْلَه!

* * *

أيدي القتلى

تَعْلُو وتَدُقّ. . تدقّ توابيتُ الظلمات

عادَ الأموات

وتوارى عامٌ في الظلّ

وأطلّ جديد

فالليلةَ. . هذي الليلةَ. . عيد[1]!

إنّ شعباً أُصيب بالفساد وانحلال الأخلاق لن يطول به المقام على صدور الجماهير الحرّة. . ولن يخلف الله وعده بنصر المظلومين على الظالمين. وإذا كانت جولة الباطل ساعة فإن جولة الحق مستمرة حتى قيام الساعة.

تذكّرنا هذه الأعمال الشنيعة بخطط اليهود في نشر الفساد والفجور، بوسائل خبيثة ومغرية، في مختلف أقطار العالم، بغية إيقاعها في مهاوي التفكك والضعف والانحلال، حتى يتمكنو بدورهم من السيطرة على العالم اقتصادياً وسياسياً واعلامياً. وأقول: عسى أن يتنبّه العرب ويتصدوا لمثل هذه الآفات، التي إن قويت تصبح داءً قاتلاً يُلْحق بهم أفدح الخسائر والنكبات.

ومن المعلوم أنّ المسلمين الأوائل وبدافع من صدق إيمانهم وحسن

(١) ديوان سميح القاسم، مجموعة «دمي على كفي» ص ٥٦٠ ـ ٥٦٣.

سلوكهم، ورغم قسوة ظروفهم، استطاعوا أن يقضوا على العادات المرذولة.. والأعمال المستنكرة.. ويصلحوا حال العباد وينشروا الدين الإسلامي السمح، ويقهروا الفرس والروم، وينالوا إعجاب العالم على مرّ العصور.

رابعاً: الدعوة إلى التحرر ومساندة قضايا التحرير

ناشد الشعراء الجماهير الأبيّة الكادحة ـ أينما كانت ـ أن تناضل وتثور على ظالميها ومستغلّيها، ومغتصبي حقوقها، ومحتلّي أرضها، علّها تنتزع حقوقها، وتتحرر، وترتاح، وتراكب ركب الحضارة والتقدم. ويمكن ملاحظة ذلك من خلال النماذج التالية:

١ـ يدعو عبد الكريم الكرمي جماهير شعبه إلى الثورة على الظالمين في الآفاق، ويطالبهم بتحطيم نير الاستعباد، وتقطيع الوثاق الذي حطّم به الشعب، والقضاء على الظلم والجهل والفقر، حيث يقول: [الخفيف]

أيها الثائرون في العالم الرّحـ ـب على الظالمين في الآفاق
حطّموا النير فهو من أثر الوحـ ـش على الأرض واعصفوا بالوثاق
وامسحوا الظلم والجهالة والفقـ ـر من الكون بالدم المهراق[1]

٢ ـ ولا يكتفي أبو سلمى ـ عبد الكريم الكرمي ـ بدعوة شعب فلسطين وحده إلى الثورة.. بل يدعو سائر شعوب العرب أيضاً إلى الثورة على الظلم القاتل، والظالمين، بغية التحرّر، وتحرير الوطن والعبيد من الملوك والمستغلّين الذين يضطهدونه ولا يرحمونه، ويقول في قصيدته «لهب القصيد»: [المتقارب]

---

(١) ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) ص ٥٤.

إيه شعوبَ العرب أنتم مبعث الأمل الوحيد
سيروا على التُّربِ المخضَّـ ـبِ والثُمُوا أثَرَ الجدود
حريّةُ الإنسان بالدَّ مِ تُشْترى لا بالوعود
إيهِ فلسطينُ، اقحمي لُـ ـجَجَ اللهيب ولا تحيدي
لا تصهرُ الأغلالَ غيرُ جهنَّمِ الهوْلِ الشديد
حَلَفَتْ دماءُ الثائرين على العُلوجِ بأن تسودي
والثورةُ الحمراءُ نطعِمُها اجسومَ مع الكبود
يا مَنْ يُعِزّون الجِمى ثوروا على الظلم المبيد
بل حرِّرورهُ من الملوكِ وحرّروه من العبيد[1]

يشجّع الشاعر شعوب العرب على الثورة، وتقديم التضحيات الغالية، فالحريّة الحمراء بكلّ يدٍ مضرّجة تُدَقُّ، وإذا أراد الشعب الحياة فلا بُدَّ للقدر أن يستجيب له، ومعلوم أنه لا يصهر الحديد سوى النار، وقيل: [المضارع التام]

إذا كان الشرُّ بالرأي حازماً فما دام الشرّ بالشرِّ أحزما

وإن إرادة الشعب من إرادة الله، فإذا عزم شعب على تحرير الوطن من الملوك والمستبدّين والمستغلّين فليتوكل، وخطوة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة، ومن سار على الدرب بجدّ فقد وصل.

٣ ـ ويؤكد أبو سلمى من جديد أن العرب عامة والفلسطينيين خاصة يتابعون مسيرة النضال والقتال بلا هوادة، حتى يحقّقوا أهدافهم كافة، ويقول في قصيدته «دم أهلي»: [الخفيف]

يا فلسطينُ!.. نحن باسمكِ في السَّا حِ وقوفاً نخوض كلَّ غِمار

(١) ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) ص٢٤ و ٢٥.

إنَّ أهلي على اللهيب يسيرو نَ ويمحون باللَّظى كلَّ عار
ويمرُّون فوق جِسْرِ المنايا يَهَبُون الحياة للأحرار
مَعَهُمْ، في المعارك الحمْرِ قلبي وجراحاتُهم أكاليلُ غار
معهُمْ، في الخيام، في الأفُقُ الرَّحْـ ـبِ مَعَ الزَّمْهرير والإعصار
في فلسطين.. خالدون على الدّهـ ـرِ خلودَ الجبالِ والأنهار

* * *

إنَّهُ الشعبُ وحدَهُ يعقِد الحقَّ على النَّصرِ، رايةً للفَخار
أيُّها الشارعون أقلامَنا الحرَّةَ ذودوا عَنْ حُرْمَةِ الأفكار
ألمِدَادُ الكريمُ، كالدَّم في الميدان، حُراً، حَرْبٌ على الأشرار
دافِعوا عن كرامةِ الحرْفِ والإنـ ـسان في أفق هذه الأقطار
وازرعوا النارَ في السماءِ وفي الأر ضِ، إلى أن تعود أغلى ديار[1]

أجل، إن العار لا يمحى بغير النار، وهذا هو منهج قوم الشاعر، الذين لا يحسبون للموت حساباً في سبيل توفير الحياة الحرّة لمن يعيشوا بعدهم أحراراً. ويعيش الشاعر آلام شعبه في كل مكان، ويؤكد أنّ هذا الشعب سيبقى قابعاً في وطنه، ولا يتزحزح عنه، خالداً فيه خلود الجبال.

ثم ينتقل في الفقرة الأخيرة إلى القول بأن الشعب هو الذي يعقد راية النصر على الكفاح بكلّ وسيلة ممكنة: سواء بالسلاح أو القلم والفكر، ويدعو إلى الدفاع عن حرّية الكلمة وعن الحق والوطن، بالكلمة والرصاصة، ولعمري إن الشاعر لم يخطىء الحقيقة في حكمه هذا. ولسميح القاسم بيت مشهور حول هذه المعاني، يقول فيه: [الرمل]

وأنا أومن بالحقّ الذي مجده يؤخذ قسراً واغتصابا[2]

---

(١) المصدر السابق، ص ٣١٣ و ٣١٦ و ٣١٧.

(٢) ديوان سميح القاسم، مجموعة أغاني الدروب، ص ٧٠.

٤ ـ ويغنّي الشاعر الكبير عبد الكريم الكرمي لأبطال بيباستوبول، ويدعو إلى تحرير العالم المقيّد بقوله: [الخفيف]

حرِّروا العالم المقيَّدَ حتى ... لا نَرى غيرَ عالمِ الأحرار
أيُّها الحاملون راياتِنا الحُمْـ ... ـرَ وتاريخَ شعبِها الجبّار
قَبَسٌ من جِهادكم عمَّرَ الدنـ ... ـيا فلاحتْ مواكبُ الأنوار
دافِعُوا عن حضارةِ الكَوْنِ وامحوا ... عن جبينِ الأجيالِ ذُلَّ الإسار[1]

إنّ قضايا الحرية والعمال والفلاحين واحدة في العالم، والترابط قائم بينها وإن تعددّت الأقطار، فكثيراً ما يساند شعبٌ ثورة شعب آخر أو مطالب عمّال في بلد آخر، وللتدليل على ذلك نلاحظ أن عبد الكريم الكرمي كان يتحرّق شوقاً إلى انتصار أبطال بيباستوبول في تصديهم لهجمات النازيين، وهو يعلّق الأمل في التحرير على حملة الرايات الحمر، فيشجّعهم ويؤازرهم، ومن غير شك أن للدعم والمؤازرة ألواناً مختلفة ومفيدة، ومنها قصائد الشعراء الكبار أمثال شاعرنا هذا.

ولا ينفكُّ هذا الشاعر يؤكد ثورته على الظلم والجهل والفقر وتخليد حرية العالم بقوله: [المتقارب]

وحريَّةُ الفكر نحن الذين ... رفعنا لواها كما تعلمين
ونحن الذين نثور على الظلم ... والجهل والفقر في كل حين
ومبدأُنا عالَمٌ واحد ... وتخليدُ حريَّةِ العالمين[2]

ويبدو جلياً أن الشاعر يعلّق الأمل في قصيدته الأولى على حَمَلَة الرايات الحمر «الشيوعيين»، ومن ذلك أنه وبالرغم من أن هؤلاء قدّموا

---

(١) ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) ص ٥٠ و ٥١.
(٢) المصدر السابق، ص ١١ و ١٢.

مساعدات مهمة للعرب، إلاّ أنها كانت دون مستوى وحجم الدعم الذي قدمته أميركا إلى «إسرائيل»، وأن الشيوعيين كانوا في طليعة الذين اعترفوا بقيام دولة العدوان، وها هم يفتحون اليوم أبواب الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، ممّا يسهّل على اليهود أن ينمّوا قوتهم ويتوسعوا في بلاد العرب، ويسيطروا على ثرواتها، وهذا ما يتناقض مع المبادىء والشعارات التي أعلنت بدعم الشعب الفلسطيني المظوم حتى يتمكن من تحرير وطنه...

٥ ـ ويعلن الشاعر راشد حسين ثورته على النكبة، والوعود الخادعة والخطابات والمقالات التي لم تثمر شيئاً يداوي جراح المشرّدين، وينهي اللجوء والمعاناة، ويؤكد أن لثورة تولد في عينيّ مشردٍ من دون وطن، وفي يد فلاح بات بلا أرض، ويستشيط الشاعر غضباً، ولا يتوقف عند حدود الضجر من التخدير والخطابات فيبلغ حد العتب على ربِّ الخلق، الذي لم يُبْقِ له الناس غير مظاهر العبادة، فيقول:

ولهذا يا رفاق

أنا تعبان من التخدير ومن كل خطابات

اممماليك العرب

ومن الربِّ الذي يسكن في سبع سماواتٍ طباقا

ذلك الربّ الذي لم نُبْقِ له

غير تحريم الخنازير وتحليل الذهب

* * *

أنا تعبان من الربّ الذي حوله جدي بياع جنان

وجواري

والذي من أجل حرقي

سوف يقضي العمر في جمع الحطب[1]

وأَستغربُ كيف يفقد بعض الناس إيمانهم بربّهم إذا حلَّت بشعبهم نكبة أو انحرف زعيم أو ملك أو قائد في الثورة، وأَسأل: هل يدل هذا الشعر على صبرٍ وثبات وإيمان أم العكس؟

وأُضيف إن المشاعر الوطنية التي دفعت الشاعر إلى نقد المقصِّرين بحقّ الوطن لا تبرُّر الوقوع بأفدح الأخطاء، وهو الكفر بالله، ولوم الخالق على معاناة الشاعر وشعبه، لأن المسؤولين عن هذا التقصير هم البشر لا ربّ العالمين، الذي ينصر من ينصره، لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبِّتْ أقدامكم﴾[2]، وخير دليل على ذلك انتصار المسلمين في غزوة بدر.

خامساً: مدن وأقطار مناضلة

أشاد شعراء فلسطين ببطولات عدد من المدن والأقطار المناضلة في سبيل الحرية والعدالة ودحر العدوان، وتغنّوا ببسالتها وانتصاراتها وأمجادها، وليس هذا غريباً على شعراء شعب يغدو ويمسي مناضلاً صابراً صامداً، وقد قيل: الثائر يحبُّ الثوار...

١ـ يصف الشاعر كمال ناصر اشتراك المواطنين في القتال ببسالة في بور سعيد، رجالاً ونساءً، شيباً وشباناً، وتمكّنهم من صدّ العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦، ويقول في قصيدة له بعنوان «المعركة ـ بور سعيد»: [الخفيف]

(١) ديوان راشد حسين، مجموعة «أنا الأرض لا تحرميني المطر» ص ٥٧.
(٢) سورة محمد، الآية رقم ٧.

شرفاً بور سعيدُ ما أجمل المـ ـوت ويا حبَّذا جوار الغيدِ
شرفاً بور سعيدُ ينهي على النصـ ـر وعزّاً في يومك المنشودِ
أنتِ ألهبتِ للبطولة طيفاً في خيال اليرموك وابن الوليدِ
هبَّ من ضجعةِ الثرى وأطَلَّتْ مقلتاه بالزهو بين اللحودِ
أنتِ ألهمتِ كلَّ معنىً فريدٍ بات يحيا في خالداتِ القصيدِ
أنت حلم مجنح وخيال عبقريٌ ونفحة من خلودِ
لكِ فوق التاريخ أعلامك الحمـ ـر فتيهي بها وغنّي وميدي
حلم الشعب في التحرُّر والنصـ ـر ونجوى معذَّب وطريدِ
عربيّ يمور بالثأر والهول على أمنيات جيل حقودِ[1]!!

فالشاعر يستعذب الاستشهاد في سبيل الوطن، والفوز بالجنة في جوار الغيد الحسان، ويرى أن البطولات التي شهدتها بورسعيد تشبه البطولات العربية في اليرموك، ولهذا تخيّل أن خالد بن الوليد قد أطلَّ من مرقده مزهواً معتزاً. . .

وارتفعت أمجاد النصر لتعيش مع التاريخ، الذي سجل تحرر بورسعيد، بل مصر وانتصارها، الذي يعني انتصر العرب وجبروتهم، وقد انتقموا من أعدائهم البغاة.

إنها قصيدة تعبّر عن أحداث ومشاعر حقيقية ـ لا مبالغة فيها ـ انسابت في وزن البحر الخفيف التام. وأظهرت أهمية القتال والبطولات في صدّ العدوان، وصدق من قال اطلب الموت توهب لك الحياة، أجل الحياة الحرّة الكريمة والنصر.

٢ـ ويتغنى كمال ناصر بثورة الجزائر وبطولات شعبها، ويقول في

(١) الآثار الشعرية، ص ٢٠٨ و ٢٠٩.

قصيدة له بعنوان «في رحاب الجزائر»: [الخفيف]

يا جناحي، هٰذي رحابُ الجزائر كلُّ شبرٍ بها على الضَّيْم ثائر
تلك آكامُها الخصيبةُ بالمجد وأبطالها الكماة الأساور
تلك ساحاتها المهيبة بالنور كصدر الإيمان بالوحي عامر
صَمَدَتْ فوقها البطولاتُ تعرى بين شدقي أهوالها والمجازر
وتغنَّي في الحقِّ أنشودةَ النصر وتمضي مجنونةً للمخاطر
ثورةٌ لا ترى الحقيقة إلاَّ في رؤى النصرِ أو بظلِّ المقابر
عزَّ في دربِها السلاحُ فما هانتْ وهانتْ على النضالِ الكبائر
فهي من عنصرِ الخلودِ لهيبٌ وهي مِنْ فَيْضِهِ السخيّ الزاخر
واستعادَ التاريخُ فَرْحَتَهُ الكبرى فغنَّى لها وشقَّ الحناجر
ثورةُ الشَّرْقِ هٰذهِ يا فرنسا فانظريها تجسَّدَت في الجزائر
هٰذهِ ثورةُ العروبةِ ماجتْ بالمياميـن والتظت بالكواسر
كلُّ حيٍّ على جحيمِ لظاها في المُلِمِّ العصيبِ عبدُ القادر[1]

يبيّن الشاعر أن كل مكانٍ في الجزائر قد ثار على الضيم، وتأبى أن تذِلَّ النفوس الكرام أو ترضى بالاستعمار والاستغلال، ولهذا انتشر أبطالها في بلادهم، فأشرقت بهم وازدهت، كإشراقة وجه المؤمن، وقاتل هؤلاء أعداءَهم الفرنسيين ببسالة نادرة، وجادوا بالتضحيات الغالية، رغم قسوة الظروف وقلة السلاح، وحققوا النصر، فكان نصراً للعرب، بفضل أبنائها المجاهدين الأشدّاء الصناديد، الذين يشبه كلٌّ منهم القائد البطل عبد القادر...

٣ ـ واختار خالد أبو خالد اسم: «أغنية حب عربية إلى هانوي» عنواناً لمجموعته الشعرية..، وهانوي في نظره هي:

(١) الآثار الشعرية، ص ١٩٤ ـ ١٩٨.

تلك التي لم تَنَم

تَتَقدَّم

تزحفُ

تنضمُّ في قلبها كل تلك البحيرات

إنْ زَيَّنَتْ صَدْرها

زَيَّنَتْه بلوتسه أخطأَتْها القنابل

غنَّى لها الشاعرُ المتَيَقِّظُ بالشعر

والبندقية

للْحَلَقاتِ التي كوَّنتها أغانيه من حوله[1].

يفخر الشاعر بيقظة هانوي ونموها وتقدمها، واعتزازها بالنضال والبندقية، وسط جحيم الأعداء المحدقين بها، وهذا ما يؤكد اتجاه الشاعر الأممي، الذي لا يقف عند حدود الوطن العربي، بل يتسع صدره وفكره لسائر الشعوب وقضاياها الرئيسة...

ويرى الشاعر ذاته أن الثورة الفيتنامية نموذج من نماذج الإبداع الثوري الجماهيري، فيقول:

قتلتك يد الوحش الفاشي

لكنك حي،

---

(١) أغنية حب عربية إلى هانوي من قصيدة بالاسم نفسه، ص ٢٨.

في قلب المدّ الفيتنامي الهاجم عبر زمان الرعب[1].

فالقوات الأميركية كانت توجّه إلى الثورة الفيتنامية ضربات قاتلة، ولكن الأخيرة بقيت تعيش وتقوى. وتعاظم المدُّ الثوري وسط جحيم الرّعب، حتى قيّد له دحر الامبريالية.. في فيتنام، وبذلك سَجّلَ صفحاتٍ مشرقة بالبطولة والفداء في هذا العصر.

سادساً: أبطال الحرية

أشاد شعراء فلسطين بأبطال النضال الفلسطيني قبل نكبة ١٩٤٨م وبعدها، وفي طليعتهم الشيخ عزّ الدين القسّام، والقائد البطل عبد القادر الحسيني، والشاعر كمال ناصر، ولم ينسوا أبطال الفدائيين، و«أبطال الحجارة...»، والمناضلين المعتقلين، الذين يملأون السجون إباءً وكبرياءً، ولمّا كنّا قد بحثنا هذا الجانب في الاتجاه الوطني، ومنعاً للتكرار نقتصر الآن على أمثلة قليلة منه، على أن يعود كل راعب في المزيد من هذا الشعر إلى ذلك الفصل...

وفضلاً عن ذلك وتأكيداً على وحدة النضال والدم، ووحدة قضايا التحرير في العالم أشاد شعراء هذا الاتجاه بعددٍ من أبطال الحرية في العالم، وبلغت ثقة الشعراء بهم حدّاً واسعاً، حيث راحوا يتمنّون على بعضهم تحرير كل أرض مستعمرة في العالم.

١ ـ يشيد معين بسيسو في قصيدته «الأرض» بأبطال الحجارة والشهداء في فلسطين المحتلة، الذين اتخذوا من الحجارة مادّة يقاتلون بها عدوّهم، بينما بنادق الأنظمة ملجمة..، ويقول:

---

(١) وسام على صدر الميليشيا، ص ٨.

تفاجئني الأرضُ، إنَّ الحجارةْ

تقاتل والأنظمةْ

بنادِقُها ملجمةْ...

تفاجئُني الأرض،

إنَّ أكفَّ الصَّبَابا

مرايا

وحجمُ الشَّهيدِ، بحجمِ السَّماء

* * *

تفاجئُني الأرضُ:

هذه أصابعُ كفي

أقلامُ مدرسةٍ في رفحْ

ألوانُ طفلٍ، على شطّ غَزَّةَ،

يرسمُ عكا

ويرسمُ في كفّه الكرملا

ويرسمُ في كفيَّ القَسْطَلاَ

ويَعْلِنُ إضرابَهُ الأوَّلا[1]...

يصوّر الشاعر نصال أبطال الحجارة، وكأنه يستغرب كيف يرى المتقاعسون أكُفَّ الصبايا مرايا... فيهتمون بالغيد الحسان، ولا يرون من هم

(١) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٦٦٥ و ٦٦٦.

obeikandl.com

أكبر من هذه الأكف وأكبر من هذه الغيد وهم الشهداء، و«كفّ الشهيد بحجم السماء..»، ثم يلمح إلى استغرابه حال العرب والمسلمين من خلال حلم أطفال فلسطين بتحرير بلادهم، لأن حبّها يملأ قلوبهم يرسمون الكرمل والقسطل ثم يعلنون الإضراب، ويأبون الضيم وينشدون الحرية، ويتحسَّسون جراح شعبهم، بينما يستمر العرب والمسلمون في سباتهم وتقاعسهم.

وأقول: لأن هذه البنادق ملجمة فإن فلسطين ما زالت بقيود الاحتلال مكبلة، وشعبها مضطهد معذّب، ينادي كل يوم من حول المسجد الأقصى وفي مختلف بقاع الأرض: يا مسلمون، يـ عرب، وامعتصماه، ولكن لا مجيب، وصدق الشاعر في قوله: [الوافر]

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لا حياة لمن تنادي!

وممّا يلفت النظر أنه لو قتل شخص يشترك في مظاهرة في بلد أجنبي لقامت له البلاد وقعدت، وإن تكرر مثل هذا القتل ثار الشعب وعصف بالدولة، أو وزير الداخلية على الأقل، وإذا كانت هذه الدول، وعلى رأسها أميركة تحتج على احتلال العراق للكويت وتجرّدها من بعض الأسلحة فلماذا لا تحتج على احتلال فلسطين وجنوب لبنان، ولا تحتجّ ولا تفعل شيئاً على مقتل وجرح المواطنين العرب يومياً داخل الأرض المحتلة على أيدي الصهاينة الطغاة؟! وقبل هذا وبعده لماذا لا ينهض العرب والمسلمون، ويهبون لنجدة الشعب المظلوم، ويحرّرون أرض فلسطين المحتلة منذ عشرات السنين؟!!

٢ ـ وغنّى شعراء هذا الاتجاه أيضاً للمناضلين العرب المعتقلين في سجون سلطات الاحتلال الصهيوني، وهذا توفيق زياد ينظم قصيدة «شهداء الحرية» تضامناً معهم في الإضراب الكبير الذي نفذوه ضد الاحتلال..، وبينهم عدد من المعتقلين الإداريين، فقال:

هٰذه أغنيهْ

للعَشْرَةِ آلافِ سجين

* * *

هٰذه أغنيهْ

للأيدي المسحوقةِ بالأَغلالِ الدمويَّة

تتحدّى الأغلالَ الدمويَّة

لعيونٍ تتوقّدُ خَلْفَ القُضْبَان

للقامات المنْتَصِبَة

في قلبِ الزَّنزاناتِ الوحشيَّة

تتحدّى الزَّنزاناتِ الوحشية

* * *

هذه أغنية

للعشرةِ آلافِ جبين

مرتفع في وجهِ الموت

وآلاتُ التعذيبِ الهمجيَّة

تتحدّى آلةَ البَطش

لتبقى الأرضُ

الأرضُ

obeikandl.com

العربيَّة ـ

عربيَّة[1]!

وأسأل: هل يكفي أن يعلن العرب عن عزمهم على تحرير الأرض المحتلة ونجدة أهلها، في حين تنزف يومياً وتعاني الكثير الكثير...، ولا يفعل العرب والمسلمون شيئاً يُذكر، يفرج الكرب عن المعتقلين «داخل السجون وخارجها» في الأرض المحتلة؟

وأضيف: إلى متى سيبقى هؤلاء ينتظرون النجدة؟!!

على أية حال فإن الشعب الفلسطيني عازم على الاستمرار في مسيرته النضالية الطويلة، والشاقة، ولسوف يقاتل أكثر، ويصمد، ويصبر، حتى يتمكن من تحرير وطنه الجريح بعون الله.

٣ ـ غنّى سميح القاسم إلى الزعيم الإفريقي «الكونغولي» باتريس لومومبا «شاعر الحريَّة ورسولها. في مجاهل غابات الكونغو الزنجي المعذّب!»، لأنه واحد من أبطال الحرية في العالم، فقال: [الخفيف]

لاطمِ الريحَ بالجناحينِ.. واَصعدْ.. يا حبيبَ الحريّةِ المتمرّد

أَيُهْذا النَّسْرُ الذي راعَهُ العيشُ بوادٍ كابٍ.. ذليلٍ.. مقيَّد

فتلوّى في بؤرةِ الوحلِ والشَّوْكِ.. بشوقٍ إلى السَّنا مُتَوَقِّد

وأضاءَت أحلامُهُ برؤى موسى، وعيسى، وأمنياتِ مُحَمَّد

وأضاءَ الحنينَ للذروةِ الشمّاءِ.. بين النجومِ.. أعلى وأبعد

---

(١) ديوان توفيق زياد، مجموعة «أغنيات الثورة والغضب»، ص ٤٦٦ ـ ٤٦٩.

فنزا للعلاءِ.. ميناؤه الشمروخ، في قمةِ الإباءِ الموطَّد

* * *

يا هُتافاً، لوقعه زُلزلَ الكونغو الحزينُ المعذَّبُ المستعبَد

أَغْفَلَتْهُ عِصَابةٌ ساقتِ الشعبَ عبيداً.. لأجنبيٍّ مُسَوَّد

نَسْرَ إفريقيا العظيمَ.. نداءُ الشمسِ دوَّى على الوجودِ وأَرْعَد

فاستجبتَ النداءَ.. لبيكِ يا أمي.. غداً في أفق البطولات موعد[1].

يناشد الشاعر بطل الحرية المتمرّد «لومومبا..» أن يناضل بكل قواه..، بعد أن ساءَ الأخير عيش القيد والإذلال، فنهض يكافح من أجل تحقيق الاستقلال والتقدم، مسترشداً برسالات موسى وعيسى ومحمد، عليهم الصلاة والسلام.

ويعجب الشاعر، في المقطع الثاني، كيف زلزل هتافُ الحرية الكونغو الحزين المعذّب، المستعبد شعبه، بينما يتجاهل المستعمرون صوته ومطالبه المحقّة، ويطمئن الشاعر الشعب المظلوم أن شمس الحرية أشرقت ولن تغيب، ويشجّعه على متابعة مسيرة النضال والبطولات حتى تتحقق مطامحه وآماله.

إنه تصوير جميل للواقع دون مغالاة، يؤكد مشاركة الشاعر لسائر الشعوب في مشاعر الظلم والغبن، والتوق للحرية، ويسدي النصائح القيّمة بالتلميح تارة، والتصريح تارة أخرى، وهو شعور حيّ نبيل، يبرهن الشاعر من خلاله على مشاركة العرب شعوب العالم في معركة الحرية التي لا

(١) ديوان سميح القاسم، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

تتجزأ، ومحاربة المستبدّين بغية تقرير المصير؛ وتحقيق الاستقلال والتقدم.

٤ ـ وغنّى ناجي علُّوش للزعيم الكوبي «فيدل كاسترو»، كرمز لثورة كوبا المنتصرة، وأكد أن النضال لم ينته بعد، وأن المسيرة مستمرة، والجولات تنتظر الأبطال، وقال:

لمْ ينتهِ النضال بعد
لمْ تنتهِ المسيرة
وما تزالُ ألفُ جولةٍ تنتظرُ الأبطال
من أجلِ أنْ يُسْحَقَ رأسُ الغولِ في نيويورك
أو تُحَوَّلُ الأدغال
إلى حقولِ قصبٍ وعِنَبٍ وحنطةٍ ورَوْضِ برتقال[1]

يريد الشاعر أن يقول: إمّا أن تنتصر كوبا في نضالها وتَسْحَقَ رأس الغول الممتدّ إليها من نيويورك، أو تنهزم، وتتحول أدغالها إلى أرض زراعية..، وتصبح كوبا سوقاً لتصريف المصنوعات الأميركية.

وكأن الشاعر يودّ أن يدلّل على أن المناضل الأُممي في كوبا يقابله شاعر أُممي في فلسطين، وأن المعركة المصيرية من أجل الحرية واحدة، وأن تضامن الشعوب بالبندقية والكلمة والقصيدة أمر ضروري، وهو من أهم عوامل النصر.

٥ـ ويرى الشاعر خالد أبو خالد أن النصر لا يكتمل بتحرير فلسطين، وأن التحرير يتمّ عندما يقتل شهريار في الليلة الثانية بعد الألف، لأن الرفاق

(١) ناجي علوش: النوافذ التي تفتحها القنابل، قصيدة «لم ينته النضال بعد»، ص ٧٦.

يتمنون على بعضهم تحرير كل أرض مستعمرة في العالم، ويقول:

تذكَّرْ.. وأنتَ تُلَوّنُ وجهي

تذكَّرْ

بأَنَّ شريطاً من الأرضِ في آخرِ الكَوْنِ لم يَتَحرَّر

وأنّك أنتَ المُحَرِّر[1]

سابعاً: شوق وحنين إلى الوطن والأهل

إنَّ الشعر في هذا الجانب غزير ـ يمكن ملاحظته مليّاً في الاتجاه الاجتماعي ـ وهو ينبض بصدق العاطفة، وحرارة الجراح، والنكبات الفادحة، والمعاناة القاسية، التي عاشها الشعراء مع جماهير شعبهم، عبر نضالهم الطويل والمستمرّ بلا هوادة، فضلاً عن تمزّق الأكباد حرقةً بعد تقطُّع أوصال هذا الشعب، بسبب النكبات المعروفة..، حتى أنّ العائلة الواحدة باتت موزّعة بين الأرض المحتلة وأرض الغربة، وكأن نيران الشوق إلى الوطن والأهل ترتفع إلى عنان السماء، ولكم يعتصر الألم الأكباد عندما يمرض أحد أفراد الأسرة أو يموت دون أن يتمكن ذووه من مشاهدته، سواء أكان في الأرض المحتلة، أو في بلد عربيٍّ مجاور، بسبب الحواجز المصطنعة في وجه الفلسطينيين خاصة، وكم مرة ومرة مات مريض قبل أن تُنجز معاملة سفر ذويه بغية زيارته، وأعتقد أنّ أمثال النبي أيوب (ع) كثيرون في هذا الشعب المناضل، وأمثال الخنساء أكثر وأكثر...

١ـ ويبدو أن ارتباط الشاعر عبد الكريم الكرمي بالوطن والأرض يشبه

---

(١) خالد أبو خالد: اجتياز الليالي الألف، من قصيدة شهرزاد، ص ١١٧.

إلى حدّ كبير ارتباط الفلاح بأرضه وفأسه، وارتباط الأم بطفلها الرضيع، لذلك نراه يصوّر لنا إحساسه الصادق، الذي أخذت تمزّقه أرض الغربة عن الوطن بألم المعاناة والشوق. ويمكن ملاحظة ذلك في قصيدته «بعد الفراق»، وفيها يقول: [الخفيف]

قَسَماً بالسفوحِ... إنّا حَمَلْنا ... يا «فلسطينُ» في هواكِ العذابا
وإذا ما سألتِ عنّا أنتَسَبْنا ... وأَبَيْنَا إلاّ إليكِ أنتسابا
ما بَعُدنا عن طيبِ أرضكِ إلاّ ... زادَنا البُعْدُ مِنْ ثَرَاكِ اقترابا
وَزَرَعْنا الأشواقَ في كلِّ أرضٍ ... ليتَها أَنْبَتَتْ قَنَاً وحِرابا
وافْتَرَقْنا ـ وأنتِ في القلبِ ـ أعوا ... مَ دهورٍ مَذَلَّةً واغترابا
والْتَقَيْنا على ملاعِبِكِ السَّمْـ ... ـحَةِ شِيباً بعد النوى وَشَبَابا
وَسَجَدْنا نُقَبِّل الحَجَرَ الأَسْـ ... ـوَدَ والرَّمْلَ والحَصَى والتُّرَابَا[1]

يؤكد الشاعر أنه وبرغم تحمله معاناة هوى الوطن وهمومه دون كلل، فإنّه وجماهير شعبه أَبَوا أن ينتسبوا إلى غير هذا الوطن الغالي، وكلما طال الفراق أو البعد المكاني كُلَّما ازداد الشوق والحنين والإخلاص، وانزرعت كلها أو توزّعت في كل أرض، وتمنّى لو أنها ـ على كثرتها ـ تحوّلت إلى سيوف وحراب لقتال العدو، ثم يضيف أنّه وبرغم سنوات الغربة المذلّة، فإن حبّ الوطن، والشوق إليه، بقيا يملآن القلوب، ثم راح يتخيّل يوم اللقاء بعد الفراق الطويل ـ وقد اعتراه الشيب ـ فعرض صورة المشتاق المتيّم، الذي سجد مقبلاً الحجر من أرض الوطن، وشبّه هذا الحجر بالحجر «الأسود» أو «الأسعد» في مكة...، تدليلاً على قدسيته، وفضلاً عن ذلك فإنه راح يقبّل الرمل والحصى والتراب.

---

(١) ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) ص ٢٣٤.

إنه تصوير رائع لمشاعر شعب تنبض قلوب أبنائه بالصدق، وحرارة الشوق والإخلاص، وهي أسمى مشاعر، ولن تتبخر مع الزمن..، بل ستزهر أيّما زنابق من جيل المستقبل، وأيّما بنادق تقاتل بصدقِ قتال خالد وصلاح الدين وطارق، حتى يتحقق لها النصر وجمع الشمل، مهما بلغت التضحيات، وقست الجراح، وازدادت المعاناة.

٢ ـ ويصوّر محمود درويش في قصيدته «رسالة من المنفى» أشواقه الحارّة إلى أهله، ويخبرهم بحاله البائسة المعذّبة، ويقول:

تحيه... وقبله

وليس عندي ما أقولُ بعد

مِنْ أين أبتدي؟... وأين أنتهي؟..

ودورةُ الزمان دون حدّ

وكلُّ ما في غربتي

زوّادة فيها رغيفٌ يابسٌ ووجد

ودفترٌ يحمِلُ عنّي بعضَ ما حملت

* * *

أُمّاه يا أُمّاه

لِمَنْ كتبت هٰذهِ الأوراق

أيّ بريدٍ ذاهبٍ يحملها؟

سُدَّت طريقُ البرّ والبحارِ والآفاق..

وأَنتِ يا أُمّاه

ووالدي وإخوتي والأهلُ والرفاق. . .

لعلّكم أحياء

لعلّكم أموات

لعلّكم مثلي بلا عنوان

ما قِيمَةُ الإنسان

بلا وطن

بلا عَلَم

ودونما عُنْوان

ما قِيمَةُ الإنسان[1]؟

لقد أشرنا من قبل إلى الحواجز التي باتت تفصل بين أبناء شعب فلسطين. . ، ولم يعد الإنسان الفلسطيني يعرف إن كان أبوه أو أخوه أو رفاقه ما زالوا أحياءً، أم إنهم أصبحوا في عداد الأموات، بعد أن تعذّرت على أحدهم المراسلة للاطمئنان، بسبب انقطاع السُّبُل. . .

٣ ـ وينقلنا محمود درويش هذه المرّة إلى ترقُّبه الشديد للقاء أهله بشوق كبير، لأن المشرّدين مصرّون على العودة، ولا بدّ أن يعودوا قريباً، ويأكلوا ما تيسر ـ بعد أن نهب الأعداء كل شيء ـ وهو يقول في قصيدة له بعنوان «في انتظار العائدين»:

أصواتُ أحبابي تشقُّ الريح تقتحم الحصون

(١) ديوان محمود درويش، مجموعة أوراق الزيتون ص ٣٣ ـ ٣٩.

يا أمّنا انتظري أمامَ البابِ، إنّا عائدون

هذا زمانٌ لا كما يتخيّلون..

بمشيئةِ المَلاّحِ تجري الريح..

والتيارُ يغلبهُ السّفين!

ماذا طبختِ لنا؟ فإنّا عائدون

نَهَبُوا خوابي الزيتِ يا أُمي وأكياسَ الطحين!

هاتي بقولَ الحقلِ! هاتي العُشْب!

إنّا عائدون!

خَطَوَاتُ أحبابي أنينُ الصّخْرِ تحت يدِ الحديد

وأَنا مَعَ الأمطار ساهد

عبثاً أُخدِقُ في البعيد

سأظلّ فوقَ الصّخْرِ.. تحتَ الصّخْرِ.. صامد[1]

ثامناً: الأم رمز الحنان والوفاء

ماذا عساي أقول عمّن نعدّها الدّنيا كلها، ولم لا؟

أليست هي سبب وجود كلّ منّا، ولذته في حياته، ورفيقة أحزانه، وحافظة عهده، ومطيبة سهده، وهادية رشده؟

أجل، إنّها تلازمه، فتطعمه، وتداويه إبان مرضه، وتحنو عليه بعطف

---

(١) ديوان محمود درويش، مجموعة عاشق من فلسطين ص ١١٣ ـ ١١٤

obeikandl.com

ولطف، ولا تهنأ إلاّ بشفائه، وتبتسم له الدنيا إذا ابتسمت له، ولا تنفكّ عن العناية به ما دام حيّاً، وهي تفرح لزفافه، وتعتني بأطفاله، وإذا هرمت تستمر في الدعاء له، ومن غير شك أنها رمز الوفاء والعطف والحنان.

ولعظمة فضل الأم قال النبي محمد ﷺ: «الجنّة تحت أقدام الأمهات..».

والابن البار هو الذي لا ينفك عن خدمة أمه بل والديه، في كل حين، صغيراً كان أم كبيراً، غنياً أم فقيراً، وضيعاً أم عظيماً، وهو لن يستطيع أن يفيهما حقهما أبداً، لأنهما سبب وجوده، وفجر آماله، وشمس إرشاده، وضياء أفكاره، ومغرب شقوته، وقطب أفراحه، ومسك ختامه.

وقد غنّى شعراء فلسطين الأم كثيراً في قصائدهم، في مناسبات عديدة، في أرض الوطن وفي بلاد الغربة، لا سيّما وأنها شاركته في أعماله ونضاله، في كل الميادين، وفي مختلف الظروف دون كل أو كلل.

١ـ وفي قصيدة «إلى أمي» يقول محمود درويش: [مجزوء الكامل]

عيناكِ يا أمي.. وآلافُ النحوم.. وطفلتانْ
وجذوعُ زيتونٍ.. يُشَقِّقُها التلهّفُ والحنان
دُنيا شرودٍ مُتْعَبٍ، ضاقتْ بها طرقُ الزمان
من أجلها صَلَّيْتُ حتى الصبحِ، أحرقتُ اللسان

.....

آمنتُ يا أمّاهُ بالغدِ والصَّباح.. وبالكفاح
آمنتُ بالزيتون والنوار.. يبسمُ بأرتياح
آمنتُ بالجرح الذي شدّ الجراحَ إلى الجراح

آمنتُ أنْ أنصبَّ بين يديكِ في نهرِ الصَّباح[1]

ما أجمل أن يصلّي المرء طويلاً من أجل والدته بل والديه، وما أجمل أن يدعو لها طويلاً، وما أجمل أن يضع الشاعر نفسه في خدمة أمه دائماً ودون انقطاع؛ وهي أهل لذلك.

٢ ـ وها هو محمود درويش يطل علينا ثانية، ويحاول أن يبرَّ أمه بخدمة ما، ويرجو أن يتبرَّك بشيء منها، فيقول في قصيدة له بعنوان «إلى أمي»:

خذيني إذا عُدْت يوماً

وِشاحاً لهدبك

وغطّي عظامي بعشبٍ

تعمَّد من طُهْرِ كعبِكِ

وشدّي وثاقي..

بخصلةِ شعرِ..

بخيطٍ يلوح في ذيل ثوبك..

عساني أصيرُ إلٰهاً

إلٰهاً أصير[2]..

٣ ـ ويطلع علينا كمال ناصر بنمط جديد من الآراء، لكنه منهج أصيل في شعبه، حيث لم يمتثل لطلب أمه عندما أرادت ـ مثل كل أم تخاف على

(١) عصافير بلا أجنحة، ص ٥٩ و ٦٠.

(٢) ديوان محمود درويش، مجموعة عاشق من فلسطين ص ٩٨ و ٩٩.

ابنها ـ أن تثنيه عن الذهاب إلى المعركة، ويبدو أنه كان منسجماً، ولو مصادفة، مع قول النبي محمد ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»، فقال في قصيدته «إلى أمي»:

ولا تُطْرِقي..!

فَوَجْهُك هذا الحزينْ

سأنْسَاهُ في فرحةِ المَعْركة

ولا تُشْفقي..!

فلي مأربٌ في المَنُونْ

أضمُّ عليه العُيُونْ

فأَمشي إلى مطلبي

بصبرِ نبيٍّ، وعينِ نبِي

لعلّي أَنْ أُدْرِكَهْ

لدى فرحةِ المَعْرَكَه

* * *

ولا تُطْرِقي..!

فإنَّ جراحَ الحياة بصدري

تُعَذِّبُ صدري

وإنَّ نِداءَ القدرْ

obeikandl.com

يلوّنُ بالثأر عمري

ويقذفني للخطر

فأمشي إلى مَصْرَعي

وَيَمْشي إباني معي

فلا تُوصِدِي في عيوني الباب

دُمُوعُكِ كفرٌ، فلن ترجعيني

ولن تُضْعفيني

فحقّي يُريدُ الذّهابْ

إلى المَعْركهْ

إلى المَجدِ كي أُدْرِكَهْ

مصيري.. مصيرُك بين الحِرابْ

وهٰذا الذّهاب[1]

لقد خالف الشاعر رأي أمه وتوجه إلى ساحة القتال، ساحة الشرف منسجماً مع منهج المسلمين القائل: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق..». فالجهاد في سبيل الله والوطن فرض عين، أمر به رب العالمين، ولهذا وبالرغم من حب الشاعر لأمه فقد خالف رأيها ورغبتها، وأبى على نفسه أن يستكين ويخنع ويقبع في البيت، بينما تدور رحى المعركة..، وقد أخذ على نفسه عهداً بأن يقاتل ببسالة مع أبناء وطنه الأبطال، لأن مصيره ومصير أمه بين الحراب، ولذلك فإما أن ينتصر عزيزاً أو يستشهد مكرّماً

(١) الآثار الشعرية، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٨.

مبجّلاً؛ وعلى أية حال فإنه يطمح إلى تحرير وطنه وانتزاع المجد..

ولعمري إنّه ـ في قصيدته ـ سلك سبيل الأبطال الخالدين، الذين قاتلوا بإخلاص، ساعين إلى النصر أو الشهادة، وهنيئاً له في تحقيق رغبته بالاستشهاد في نهاية المطاف..، وكان بذلك وفيّاً للأم الكبرى، بلاده المجيدة، وكان باراً بها، والجود بالنفس أسمى غاية الجود.. وأعتقد جازماً أنه لو كان في وسع أبطال فلسطين كافة ـ وبمقدمتهم هؤلاء الشعراء ـ أن يضحّوا في سبيل تحرير فلسطين بأكثر من أرواحهم لما بخلوا.

تاسعاً: رثاء

الرثاء عنصر رئيسي في الشعر الفلسطيني خاصة والعربي عامّة، وإذا كان المولى قد قضى على كل إنسان بالموت، فإنّ الأحداث أيضاً كثرت في فلسطين، وفقد الشعراء في هذا البلد أصدقاء أعزاء فتأثروا لفقدهم ورثوهم بأحر الأشعار وأصدقها عبارة وألماً.

١ ـ رثى الشاعر عبد الكريم الكرمي صديقه الشاعر مطلق عبد الخالق بقصيدة قصيرة، جاء فيها قوله: [الكامل]

مُطْلَق ما المرءُ سوى تائه ... يجولُ في اليَمِّ على زورق
الموجُ من جانبهِ غاضب ... والريحُ إن تلعبْ بهِ يغرق
أنْتَ تحرَّرْت ولٰكنَّنا ... في القيدِ يا مُطْلقُ لمْ نُطْلَق
الوطنُ الغالي على تُرْبِهِ ... دَمٌ يرويهِ، ولم نُغْتَق
والدمُ والنارُ سبيلا هُدى ... مَنَارَتَا عزٍّ لِمَنْ يَرْتَقي[1]

لقد غبط الشاعر صديقه ـ مطلق ـ الشهيد بأنه تحرر في استشهاده،

(١) أبو سلمى: زيتونة فلسطين، ص ١٥٦ .

بينما راح الشاعر يشكوه حاله، ويخبره بأنه تائه على زورق في البحر، ومقيّد أيضاً في هذه الدنيا، وأن الوطن أشبه بمريض على فراش الموت يرويه دم الشهداء، والدم والنار منارتا عزٍّ لمن يرتقي...

٢ ـ ورثى الشاعر كمال ناصر صديقه الشاعر «إيليا أبي ماضي» قائلاً: [الخفيف]

لا تَقُلْ ماتَ فالشَّذَا لنْ يزولا ... عن مغانيهِ والضُّحى لن يميلا
والنجومُ السماءُ تحيا على الأف ... قِ وتأبى على انفضا الأُفولا
لا تَقُلْ ماتَ، فالخلودُ وحودٌ ... يَتَحَدَّى على الرَّدَى المُستحيلا
يهزِمُ اللحدَ والفناءَ ويبقى ... في جبينِ الحياةِ سِفْراً جليلا[1]!!

يرى الشاعر كمال ناصر أن 'لأثر الطيّب يخلّد صاحبه، وإن فارق جسده الدنيا، وأنَّ نجمه وضحاه لم يأفلا ولن يزولا... لأن مجده باقٍ وخالد، وهذا الخلود يتحدَّى الموت، فكم من إنسان حيٍّ لا ذِكْر له...، وكم خالدٍ باقٍ سفراً مجيداً «جليلاً»، في جبين الحياة، نعتزّ به ونفخر.

لقد كانت عبارات الشاعر تنمّ عن صدق مشاعره وإحساسه، فنطق بأبياتٍ قيّمة، تليق بالفقيد الكريم.

إن القصائد الكثيرة من هذا النوع في الشعر الفلسطيني تدلّ على أن الشهداء والأموات خالدون في ضمير شعبهم عامة، والشعراء خاصة، فضلاً عن دلالتها على وفاء الشعراء لهؤلاء جميعاً.

بعد هذا كله نقول: لقد كانت أهداف الشعر في هذا الاتجاه نبيلة وجديرة بالاهتمام، ولقد أُعجبت عدة أقطار بالاتجاه الاشتراكي وعملت بموجبه، ولا سيّما في ميادين الاقتصاد والتعاون والنضال وقوانين العمل،

(١) الآثار الشعرية، ص ١٤٢.

ومن هذه الأقطار الجزائر وليبية وسورية، وقد عاد عليها هذا الاتجاه بالنفع الكبير، وساعدها على تجاوز مصاعب كثيرة، وحل قضايا مهمة، ولذلك استقطب جماهير غفيرة في العالم، وخطب ودّها، ونال تقديرها، وهو يستأهل الدعم الكبير من مختلف التيارات والشعوب.

ومن غير شك أنه على أساس هذه المفاهيم أطلق الاشتراكيون دعواتهم المشهورة: «يا عمّال العالم اتحدوا» و«يا ثوار العالم اتحدوا» و«حرية الشعوب واحدة لا تتجزأ»، وهم يدعون أيضاً إلى إطلاق الحريات كافة، وإتاحة الفرص أمام ذوي الطاقات والمواهب، فضلاً عن ضرورة حمل البندقية للدفاع عن الحريّات والحقوق والأوطان والأنفس، ومساندة الأحرار والثوّار، والدفاع عن المظلومين والمقهورين، وإنصاف الفقراء والفلاحين حقوقهم، ومعالجة مرضاهم، وتعليم الناشئين والناشئات كافة.

وهكذا فإن شعر الرّافد الاشتراكي يطرق أهم الموضوعات التي ترتبط بالوطن والجماهير، ويعالجها بعمق وموضوعية، وهو لا يقلّ عن سائر الروافد أهمية وفائدة: ومن هنا فإنه رافد كبير يصبُّ في مجرى الشعر الوطني ولا ينفصل عنه.

ومن غير شك أن الروافد القومية الدينية والاجتماعية والاشتراكية تشكّل إغناءً مهماً للشعر الوطني الفلسطيني؛ ومن هنا فإن بحثها كان ضرورياً، وقد أكسب هذا الكتاب أهمية كبرى يدركها كل متبصّر...